أصنـــــاف الشعـــــر في التصور النقدي لعبد الكريم النـهشلي[1]:

الأستاذة: أنيسة بن جاب الله
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة

تمهيد:

لما كان الشعر ذلك الفنّ الذي يصدر عن الوجدان، فقد كان ترجمة عن كل ما اختلج في ذات الشاعر ذلك الفرد الذي يعبر بلسان الجماعة عن مختلف عواطفها وإحساساتها، ومواقفها الخاصة والعامة تجاه العالم الخارجي، كالفرح والطرب والحزن والغضب، وكلها أحاسيس إنسانية رسمت طريق الشعر من خلال تلك الحُلَلْ التي يرتديها الشعر العربي في كلّ مرّة، ممثلة في أغراضه.

وقد تنبّه النقاد والشعراء وحتى المتلقون من عامة الناس إلى نزول الشعر عند المقامات والمواقف التي ينظم فيها، فتكون الأغراض مناسبة لمقام الشاعر الذي هو فيه، إن فَرِحًا أو مَحزونًا أو طَرِبًا أو غاضبًا، فيكون من ذلك الفخر والمدح، والاعتذار والنسيب والغزل والحماسة، والهجاء وبقية الأغراض الشعرية.

وكانت لهؤلاء النقاد آراء خاصة حول أصناف الشعر اختلفت وتنوعت، وذلك لارتباط هذا الشعر بالمصدر الإنساني الوجداني الذي يتميز بالتنوع والثراء من حيث الأحاسيسُ والعواطفُ المختلفة بمرجعياتها الدينية والثقافية والاجتماعية والفلسفية، هذا من جهة ومن جهة أخرى تميُّز النفس البشرية بالتعقيد والغموض والتداخل في تركيبتها وكذا في كيفية صُدور هذا الإبداع/ الشعر عنها متلونًا ومتوشحًا بكل صفاتها وتداخُلاتها، الأمر الذي أعطى لمفهوم الشعر طابعه الخاص من التعدّد والاضطراب، ثم تعدَّى ذلك إلى موضوعاته وتصنيفاته ولذلك اختلفت زوايا تحديد هذه الأصناف الشعرية، وذهب كل ناقد إلى تصنيف الشعر حسب نظرته الخاصة لتركيبته.

وهو الأمر الذي فعله الناقد النهشلي الذي انتهج نهجًا نقديًّا خاصًّا في معالجته لهذه الخصيصة الشعرية المهمَّة، والتي تنبّه إلى قيمتها في تنمية فهمنا للشعر فهماً صحيحًا ودقيقًا.

أولاً – التصنيــف الأخلاقــي للشعــر:

وكان تميُّز النهشلي في تصنيفه للشعر من خلال توجهه النقدي الذي وسمه النقاد بالنقد الأخلاقي؛ حيث تغلَّبت النزعة الأخلاقية الدينية لدى النهشلي لتفرض طابعها على رأيه الذي ساقه لنا تلميذه ابن رشيق قائلاً:« وقال عبد الكريم: الشعر أصناف. فشعر هو خير كله– ذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك– وشعر هو ظرف كله– وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب– وشعر هو شر كله– وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس– وشعر يتكسب به– وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه»(2)، ويتجلّى بذلك الأساس الأخلاقي في تقسيمه للشعر وذلك باعتماده على ثنائية أخلاقية مهمة هي ثنائية" الخير والشر" التي تقوم عليها المؤسسة الأخلاقية منذ أن خلق الله سيّدنا آدم عليه السلام إلى يومنا هذا، ويَتَوسَّط بين كل ما هو خير مطلق وكل ما هو شرّ مطلق أمور تمثلها النهشلي في شعر الظرف وشعر التكسُّب؛ وهو في تقسيمه هذا يقترب من« مبدأ الفضيلة الأخلاقية الملحوظة في موقف قدامة من الشعر وأقسامه»(3).

وللوقوف على حيثيات نصّ النهشلي ومراميه وجب علينا أن نقف عند تصوّره الخاص لكل غرَض من أغراض الشعر التي عرض لها، فهو لما اعتمد هذا السَّمت من التصنيف كان قد رسَّم تصوُّرًا خاصًا لأغراض الشعر العربي، أدَّت فيه شخصيته دورًا مهمًّا، ولا غرابة في ذلك لما عُرِفَ عن شخصية النهشلي من حلم وعلم وتعقُّل وتأدُّب، جعلته يفضل أصنافًا من الشعر لخيريَّتها وجمالها، وينبُذُ أخرى لما تحمله من قبح الغاية مع قبح الكلام.

1- شعر هو خيــر كلـــه:

يرى النهشلي أن من الشعر ما هو« خير كلّه»؛ ويقصد بالخير ها هنا: الصلاح والرشاد الذي يحققه الشاعـــر انطلاقا من ذاته وتأثيرًا في المتلقـــي، لتحصل بذلك المنفعة

العامة للناس وتتحقق الغاية الأولى من خلق الثقلين(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(56)[4]، فتكون الاستقامة دلالة على انتصار الخير في هذا المجتمع الذي يطبعه الأمان والاطمئنان، وقد تمثل النهشلي" الخير" في أغراض مهمَّة رأى أنها قد ذهبت بالخير كله، وذلك لصدق غايتها ولكون أصحابها من ذوي النفوس الخيّرة الراجية عفو ربِّها، والمؤمّلة استقامة غيرها، فجعل النهشليُّ على رأس هذه الأغراض غرض الزهد.

- الزهـــــد:

وهو غرض ظهر موضوعاً بارزاً من موضوعات الشعر العربي مع مجيء الإسلام، يقول عنه عبد المنعم خفاجي أنه« فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف والدعوة إلى الرجوع إلى البساطة وتغليب النظر إلى جانب الفقراء ونقد المجتمع على أن في شعر الزهد جانبا من جوانب الدين يوجب البساطة في كل شيء»[5]؛ وذلك لارتباطه بتوبة الشاعر بعد عمر من اللهو والمجون والابتعاد عن عبادة الخالق.

ويرتبط الزهد بتقدم الشاعر في العمر؛ حيث يدفع الإحساس بدنوّ الأجل واقتراب حساب الإنسان الذي أسرف في اللهو والمجون إلى التفكير في الموت وما ادَّخر له، ولذلك يرق قلبه ويتوجه إلى ربّه راجيًا عفوه وإكرامه، ويعبّر الشاعر- كما اعتاد طيلة حياته- بذلك الشعر الناضح بمشاعر الندم والحسْرة على ما فرط في جنب الله وما ضاع من عمره، و يلوم نفسه التي كانت تأمره بالسوء، ويسأل الله عزّ وجل العفو والغفران.

وبذلك يعد النهشلي غرض الزهد من الشعر الذي ذهب بالخير كلّه، وذلك لصدق قائله في وصف شعوره، ولإشعاع جوانبه بأنوار الخير المتمثل في توبة المذنب وسلوكه طريق الهدى والخير، فهذا الشعر في طليعة الأنواع التي يجب أن تسود الشعر[6].

- الحكمــــــة:

ومن هذه الأغراض ما احتوى على« الموعظة الحسنة والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير وما أشبه ذلك»[7]، فهي موضوعات تشترك مع غرض الزهد في الهدف السامي وهو الإصلاح والإرشاد، لكن الشاعر هنا يريد الإصلاح فينظم لا للزهد- إصلاح الذات- بل ليعلم الناس أمور صلاحهم، وذلك من خلال المواعظ الحسنة المستمدَّة من تعاليم الدين الإسلامي وكذا العبرة المستفادة من الأمثال والحكم التي يصوغها الشاعر في قالب شعري يشدّ به انتباه المتلقـــي ويستفز فيه معانــــي الخير ومساعدة الغيــــر ونصرة

المظلوم وكذا إقامة عمود الدين وغيرها من مكارم الأخلاق المستفادة من درر الأمثال والحكم، والتي يصعب حصرها لفوائدها الجمَّة في حياة الفرد والمجتمع؛ فالنهشلي يرى في هذه الموضوعات التي تتدرج تحت غرض الحكمة- كما صرَّح في نص آخر سنأتي إلى ذكره- أنّ لها من المنفعة ما يجعلها تسود أنواع الشعر ارتقاءً في درجات الخير مثل: غرض الزهد وما أشبهه من الموضوعات الأخرى.

2- شعــر هو شــر كلــه:

وفي مقابل شعر الخير يرى النهشلي أن هناك صنفًا آخر من الشعــر يصفــه بقولـــه:« وشعر هو شر كلّه»؛ حيث يقصد" بالشر" في قوله هذا: المخالفات الشرعية والأخلاقية التي يحتويها هذا الشعر: كظلم الناس والتعدّي على أعراضهم بشتى أنواع الظلم الكلامي، ليضع النهشلي غرض" الهجاء" على رأس هذا النوع من الشعر.

-_الــهــجـــاء:

وهو من أكثر الأغراض الشعرية العربية شيوعا في شعر شعرائها، بل عُدَّ الهجاء أول الأغراض الشعرية ظهورًا، ذلك أن العرب في أول عهدها بالشعر استدعته للذّبِّ عن أعراضها، وابتكرته لدفع المظالم عنها، من خلال هجْو الأعداء؛ وكان الهجاء عند الجاهليين نوعين: هجاءً قبليًّا، وهو الأشهر والأكثر، وهجاءً شخصيًّا في الأقلّ(8). ثم تنوع الهجاء وعُرف منه الأخلاقي والديني والسياسي.

ولما كان الهجاء ذلك الفنّ الشعري الغنائي الصادر عن« عاطفة السخط والبغض وعدم الارتياح»(9)، اتخذ النهشلي منه موقفًا واضحًا؛ حيث صنَّف هذا الغرض في الشعر الذي هو شر كلُّه؛ لكنّه استطرد على تصنيفه هذا، وخصّ من الهجاء نوعاً من أنواعه، وهو الذي يَسْرُعُ فيه الشاعر إلى أعراض الناس ويكون بذلك ظالما، ذلك أن من الهجاء ما كان في الحق وردّ المظالم، بل وحثَّ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الشعراء من المسلمين، فقد« روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا رجل يردّ عنّا؟ قالو: يا رسول الله، حسان بن ثابت. قال: اهجهم- يعني قريشا- فوالله لهجاؤك أشدّ عليهم من وقع السهام في غبش الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، والقَ أبا بكر يعلمك الهنات، فأخرج حسان لسانه، فضرب به طرف أنفه ثم قال: والله يا رسول الله، ما يُشْرَيَنَّ به مِقْوَل من معــد، والله لو وضعته على شعــر لحلقه، أو على صخــر لفلقــه»(10)، فحتى

" جبريل" عليه السلام كان له دور في هذا الهجاء أو ردّ المظالم؛ وهو توضيح لموقف الإسلام من هذا النوع من الشعر، بل وأكدّ الله سبحانه وتعالى على ردّ العدوان على المعتدين بمثل ما اعتدوا به، وذكر الانتصار بالشعر في قوله سبحانه:(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (226) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (227)) [11]؛ فهؤلاء الشعراء آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله لصلاحهم ثم انتصروا من بعد ما ظُلِموا بهذا الشعر الذي يتضمن هجاء الخصم، وردّ مظلمته وطعنه في دينهم.

والنهشلي في موقفه من الهجاء لم يقصد الذي قلناه عن هجاء الأعداء انتصارًا للحق وإنما خصّ حديثه عن الهجاء الذي يتناول أعراض الناس بالشتم والتجريح والإقذاع، وهذا خلق مذموم عند المسلمين، بل إنه محرّم عندهم« فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمُهاجِرُ من هَجَرَ ما نهى اللهُ عنه»[12].

وكان سادات العرب وأشرافهم يترفَّعون عن هذا الخلق، ويرونه منقصة لمروءتهم. وقد أفرد النهشلي بابا في ما تبقى لنا من كتابه الممتع عن" أنفة السادات من قول الهجاء والمناقصات"[13] وضح فيه موقف العرب من الهجاء، يقول:« وقد تفعل العرب ذلك أنفا عن قول الهجاء لما فيه من سوء الأثر، وتدع جواب الهاجي تنزُّهًا عنه»[14]، وهذه الأنفة متأصلة عند شعراء العرب الذين تمثل النهشلي بمواقفهم الشعرية في رفض الهجاء والتعفُّف عن الرَّد على من هجاهم من الخصوم، كقول مَعْبَد بن عَلْقَمة: [من الطويل]

« قُــــلْ لزهَيْــــر إن شَتَمْتَ سَرَاتَنَا فَلَسْنَـــــــا بشَتَّامِيـــــن للمُتَشَتِّــــم
ولكننــــا نأبـــــى الظّلام ونَعْتَصِي بكُــــلِّ رَقِيــق الشَّفــــْرَتَيْن مُصَمَّمِ
وتَجْهَــــلُ أَيْدِينَــــا ويَحْلُــــمُ رَأْيُنَا ونَشْتِـــــمُ بالأفْعَــــــال لا بالتَّكَلُّــمِ
وإنَّ التَّمَـــــادِي فـــي الذِي كان بَيْنَنَا بِكَفَّيْـــــكَ فاستــأخر لـــه أو تَقَــدَّمِ»[15]

فالعرب تأبى الرّد بالشتائم، وإنما ردُّها على الخصوم يكون بالأفعال لا بالأقوال. وساق النهشلي مواقف شعراء آخرين مثل: الشاعر" تميم بن مقبل" الذي أتاه قومه وهم بنو كعب بن ربيعة يستحثّونه على هجاء بني كلاب لما لحقهم من هجاء شاعرهم" الكلابي الأعور"، فأبى ذلك وأنشد يقول:[من الطويل]

لسْـتُ وإن شَاحَنْتُ بعْضَ عَشِيرَتِي لأَذْكُرَ مـــا الكَهْلُ الكِــلابِيُّ ذَاكِــــرُ
فَكــَمْ لِــــي مــــن أمٍّ لَعِيْتُ بثَدْيِها كِلاَبِيَّــــةٍ عَــادَتْ عليــها الأَوَاصِرُ

وما كان من الأعور الكلابي لما سمع قول الشاعر العجلاني إلا أن انتهى عن هجاء بني كعب، وأنشد يقول:[من الوافر]

لســـتُ بشـــاتم كعبًـــا ولكن علـــى كــعب وشَــاعِرها السَّــلاَمُ
ولســتُ ببائـــع قومًـــا بقـــومٍ هـــم الأنْـــفُ المُقــدَّمُ والسَّنَــامُ
وكَــــائِنْ فــي المَعَاشِرِ من قَبِيلٍ أخُـــوهُم فَوقَهُـــمْ وهُــمُ كِـــرَامُ

يقول النهشلي: ولم يقل الأعور بعدها شيئًا[16].

وكذلك كانت مواقف شعراء آخرين في الأنفة من قول الهجاء: مثل الزبرقان بن بدر في قصته مع الحطيئة والقرعي، والطرماح مع الفرزدق وصخر بن عمرو بن الشريد ممن استشهد النهشلي بمواقفهم الشعرية في ذم الهجاء والترفُّع عنه، ليختتم حديثه في هذا الباب بمقولات تؤكد ضرورة الحلم والتثبُّت في بعض المواقف- كهجاء الخصوم- حيث يقول:« وقال ابن الحنفية: قد يدفع باحتمال مكروه ما هو أعظم منه.

وقال عبد الله بن عروة: بعض الذلّ أبقى للمال، والأهل.

ومدَحَ ابن شهابٍ شاعرٌ فأعطاه وقال: إن من ابتغى الخير اتقى الشر»[17]، فهذه الأقوال تتفق في أن العرب لا تأنف عن قول الهجاء ترفُّعًا عن الدَّنايا فقط وإنما هي بفعلها ذاك تتجنَّبُ مكروها أعظم، وهو أن الهجاء فيه فضح لمثالب المهجوّ وكشف لعيوبه- ومن ذا الذي كملت أوصافه فتنزَّه عن العيوب من الناس- وأكثر من ذلك هو أن هذه القصائد هي من الكلام المأثور الذي يبقى على مرِّ الأزمان ليحفظ معه ما قيل في وصف عيوب هؤلاء وهؤلاء، ولذلك« فأكرم العرب في أنفسها يشتد تخوفها من الهجاء، وتتقي أن يبقى ذكر ذلك في الأعقاب.

وكانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ألاَّ يهجوهم، وربما شدوا لسانه كما فعل بنو تيم يوم الكلاب بعبد يغوث، فسألهم أن يطلقوا من لسانه لينوح على نفسه فقال:[من الطويل]

أقُـــــولُ وقــد شَدُّوا لسَانِي بِنسْعَةٍ أمَعْشَــــرَ تَيْم أَطْلِقـُوا مــن لِسَانِيَــا »[18]

حيث تكلم النهشلي مطَّولا فيما تبقىّ لنا من كتابه الممتع[19] عن تخوُّف العرب

من الهجاء واتقائها لمأثور الحديث؛ أي« ما يقع في شعر يُرْوَىَ فيه، فيبقى على وجه الدّهر»[20]، وكيف أن الهجاء أدنى من مروءة أناس كُثر، بل وحتى قبائل عرفت بشرفها وفرسانها وهيبتها فكان الهجاء سببا في ضعتها بين القبائل.

ومن أمثلة قصائد الهجاء التي ذكرها النهشلي قصيدة" النابغة" التي رأى بأن الشاعر جمع فيها وجوه المقابح، كما اجتمعت في قصيدة حسان بن ثابت في مديحه لآل جفنة وجوه الممادح، باعتبار أن الهجاء هو ضدّ المدح.

يقول النهشلي:« ونظير أبيات حسان في جمعها وجوه الممادح شعر النابغة في جمعه وجوه المقابح في هجائه للنعمان بن المنذر:[من الخفيف]

خَبَّــرُوني بني الشَّقيقَــة ما يَمْنــــــ ــعُ فَقْعًــــا بِقَرْقَـــرٍ أن يَــــــزُولاَ
قَبَّـــــح اللهُ ثـــــم ثنَّـــــى بِلَعْـــنٍ وَارِثَ الصَّائـــــغ الجــبان الجَهُــولاَ
مـــــَن يَضُرُّ الأَدْنَى ويَعْجِزُ عن ضَرَ رالأَقَاصِـــــــــي ومن يَخُــونُ الخَلِيلاَ
يجمع الجَيْــشَ ذا الأُلُــوف ويْغْــزُو ثم لاَ يَـــــــرْزَأُ العَـــدُوَّ فتيــــــلاَ

تدبَّر هذه الأبيات، فإنك تجدها غاية فيما تكرهه العرب. وتتشاءم به، ألاَّ ترى كيف جمع في بيت واحد القبح، وفيه الاستيلاء على جميع ما يكره ويُستَشْنَع.

واللعن: هو النفي، والطَّرد. ثمّ جعله موَضَّعا لئيم الخال والعرب تتمادح بالخال.

قال الفرزدق يفخر بخاله:[من الكامل]

خالي الذي غَصَبَ الملوك نُفُوسَهُــم وإليــــه كان حبــاءُ ضبـــــة يُحْمَــلُ

وأم النعمان بن المنذر: سَلْمى بنت عطية الصائغ اليهودي من أهل فَدَك.

ثم قال:« الجبان الجهول» وهما شرّ ما يُقْذَف به.

قال الشاعر:

جَهْـــــلاَ عَلَيْنا وجُــبْنًا عن عَدُوكــم لَبِئْسَــتِ الخلَّتــان: الجَهْــل والجُــبنُ

وكان يقال: شرُّ أخلاق الملوك: الجبن عن الأعداء، والقسوة على الضعفاء، والبُخْل عن الإعطاء.[...]

ثم جعله عاجزاً ضعيفا، يضرّ الأدنى، ويقصر عن ضُرٍّ من بَعُدَ منه، خائنًا لخليله.[...]

والخيانة تجمع الغدر، وقلة الوفاء، وخيانة الجار في أهله، والتقصير، والعجز [...]

ثم وصفه بالخيبة في مغازيه، وقلة الفوز والظفر، وحرمان التوفيق، وتأخر الإقدام، فسبحان من يَسَّره لجمع هذه المخازي» [21].

والنهشلي لم يكتف بذكر الأبيات فقط، بل اهتم بشرحها والتدليل على كل ما ذهب إليه في شرحه لصور الذمّ فيها بما ورد في شعر العرب في مواقفها من تلك المقابح فهذا الشعر لم يترك مذمَّة مما تكره العرب الاتصاف به إلا ألصقها بهذا المهجوّ؛ فجعله لئيم الخال، جبانًا، جاهلاً عاجزًا ومقصّرًا، خائنًا وخاذلاً مخذولاً، ليقف النهشلي في ختام كلامه عن الأبيات موقف المتعجّب من القدرة التي يسرت للشاعر جمع كل هذه المقابح بين دفَّتي أربعة أبيات من الشعر، والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

كان النهشلي إذن من النقاد الذين ركّزوا على الجانب السلبي[22] في غرض الهجاء، ورأوه شرًّا مطلقًا من خلال المنظار الديني الذي ينهى عن انتهاك عرض المسلمين بالشتم والإقذاع، وتمثل النهشلي موقف العرب في نفورها من هذا الغرض وأنفتها منه لسوء أثره الديني والأخلاقي والاجتماعي وحتى النفسي.

وقد امتدت هذه النزعة التي عرف بها النهشلي في رفضه لغرض الهجاء إلى نقاد كثر جاءوا من بعده، وهذا ابن بسام الشنتريني(ت542هـ) صاحب كتاب" الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، يحمل« على الهجاء حملة عنيفة لأنه يشين صاحبه ويلحقه بالسفهاء»[23]، ويستعيض عنه بشعر" التعريض"، يقول:« ولما صنت كتابي هذا عن شين الهجاء وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء أجريت ها هنا طرفا من مليح التعريض في إيجاز القريض»[24]، فالتعريض عنده« أوقع أثرًا وأشدّ إيلاما وأبقى على كرامة قائله»[25] من الهجاء الذي يحط من مكانة صاحبه.

ولئن رأى كلّ من الباحثَيْن: إحسان عباس[26] ومحمد رضوان الداية[27] أن ابن بسام متأثر في هذا التوجه الأخلاقي الديني بما اعتقده" ابن حزم الأندلسي" في نقده للشعر فإن من الباحثين من رأى أن كلا من ابن حزم وابن بسام متأثر بالنزعة الأخلاقية القيروانية عند" عبد الكريم النهشلي" خاصة، والتي امتدت عن طريق« العمدة» إلى شبه الجزيرة الأندلسية[28]، ما يؤكدّ على أهمية هذا التصور الذي صنف من خلاله النهشلي الشعر على أساس ديني أخلاقي.

3- شعــر بيــن الخيــر والشــر:

تنبّه النهشلي في تصنيفه للشعر إلى أن هناك منطقة وسطى ما بين الخير والشر؛ فمن الأغراض الشعرية ما اتسم بالشرف لكنه لم يرق إلى الخير المطلق، ومثاله: شعر الظرف، ومن الأغراض أيضا مالا يُصنّف تحت شعر الشر، لكنه يحمل في طياته غايات منحرفة مثل: شعر التكسب؛ فكان كل من شعر الظرف وشعر التكسب من الأمور المشتبهات في تصنيف النهشلي، فلا هو خير كلّه ولا هو شر كله، بل هو: شعر الظرف وشعر التكسب.

أ- شعــــر الظــــرف:

وعن الشعر الذي" هو ظرف كله" يقول النهشلي:« وذلك للقول في الأوصاف والنعوت والتشبيه، وما يفتنّ به من المعاني والآداب.»[29]؛ حيث دار مفهوم" الظرف" في المعاجم العربية حول البراعة وذكاء القلب، وقيل الظرف: حسن العبارة، والظّريف: هو البليغ الجيد الكلام[30]، وأشار صاحب" كتاب العين" إلى أن هذا الوصف يجوز في الشعر[31]، وشعر الظرف هو الشعر الذي اشتمل على لطائف الفكر والمعاني: كالتشبيهات والأوصاف، والمعاني السامية والآداب الرفيعة التي يظهر فيها ذكاء الشاعر وبراعته في حسن التعبير عنها لفظًا ومعنى، وتفنُّنُه في تجسيد الجمال من خلالها، لتثير في نفس المتلقي الإعجاب، وهزّة النشوة والمتعة فيحصل الترفيه والاستمتاع بهذا اللون من الشعر؛ والنهشلي إنما صنف وجمع الألوان من الشعر تحت موضوع" الظرف" برجوعه إلى الغاية التي نظمت لأجلها، وهي الترفيه والترويح عن النفس من خلال إمتاعها بألوان من الجمال اللفظي والمعنوي الذي تجسّد في الشعر:« ففي الشعر التياط بالقلوب، ومدخل لطيف إلى النفوس، وسلم مختصر إلى الأوهام[...]»[32].

ولمّا كانت النفس البشرية في مجاراتها للحياة القاسية والصعبة تصاب بالملل والضجر، وُجِد مثل هذا الشعر– في حياة العرب– الذي نظم للترف والزينة،« والحياة لا تستطيع أن تستغني عن كليهما»[33]؛ والنهشلي يرى بأن هذه الأغراض الشعرية« هي في منزلة" الزهد" وإن لم تبلغ مبلغه من حيث المدلول مثلما يصدر عن شعراء الغزل والوصف والحكمة والحماسة، لما يحمله شعرهم من مزايا تتسم بالصدق أو بالتخيل أو بالبيان المثير»[34]، وهو في تصنيفــه لهذه الأغراض يقصد منها الجانب الجمالي المتجسد

في براعة التشبيهات وحسن الأوصاف والنعوت مع جمال التخييل الذي بنيت على أساسه، وكذا قدرتها على التأثير في الملتقى، من خلال سحر البيان وصدق العواطف والأحاسيس التي أقامت عودها، ويضاف إلى ذلك ما احتوى عليه شعر هذه الأغراض من معان حسنة راقية، وآداب رفيعة مستفادة، و يؤكد محمد مرتاض ذلك حين أقرّ أن الشعر العربي على امتداد عصوره زخر بهذه الروائع من التشبيهات والأوصاف والمعاني والآداب التي يفتنُّ بها، وأمثلتها من الشعر كثيرة[35]، مثل: الغزل والوصف وغيرها.

-_الغــــزل:

غرض" الغزل":« هو الشعر الذي يتحدث عن الحب، مخاطبا الحبيبة حينًا، ومتحدثا عنها حينا آخر، واصفا لها حينًا، وواصفًا لديارها وكل ما يتصل بها حينًا آخر، شارحًا الهوى حينًا، وفعل الهوى به حينًا آخر»[36]، وهو معروف في الشعر العربي بنوعيه: العذري والماجن" الصريح"، ومؤدى غرضه الأساس هو الوصف، فقد يكون وصفا حسيًّا يطال أوصاف المرأة الجسدية، وقد يكون وصفا للأحاسيس والعواطف التي تتملَّك الشاعر أو موصوفته، ولا يتم إلا من خلال تلك التشبيهات والنعوت التي يتفنن الشاعر ويجتهد في تحسينها وتجويدها، ومن القطع الشعرية التي نالت إعجاب النهشلي في مجال وصف المرأة،« قول المرار العدوي:[من الرمل]

وهْيَ هَيْفَـــاءُ هَضِـيمٌ كَشْحُـــهَا فَخْمَـــةٌ حَيْثُ يشــــدُّ المُـــؤْتَزَرْ
صلتةُ الخــــدِّ طويــــلٌ جيــدها ضخمــــةُ الثَّــدي ولمَّــــا ينكسرْ
يُضْرَبُ السبعــــون في خلْخَــالها فـــــإذا ما أكْرَهَتْــــه يَنْكَسِـــرْ
لا تمسُّ الأرضَ إلا دُونــــــــها عـــــن بــلاط الأرض ثوبٌ منعفِرْ
تطـــــأ الخــــزَّ ولا تُكـــْرِمُهُ وتطيـــــلُ الذيلُ مــنه وتَجـــُرْ
ثــم تنهــــدُّ علـــى أنماطِـــهَـــا مثــــل ما مـــــالَ كَثـــيبٌ مُنْقعــرْ
عَبَــقُ العنبــر والمســك بِهـــا فهْــي صفــراءُ كَعُــرْجُونِ العُمُــرْ
أملــــحُ النــــاس إذا جــرَّدتَهــا غيــــرَ سِمْطَيْــــنِ عليهـــا وسُوَرْ

قال عبد الكريم: هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف وهي أشبه بنساء الملوك»[37] لأن الشاعر استرسل في غزليته هذه يصف المرأة- موضوع القصيدة- بمجوعة من الأوصاف المثاليـــة التي أعجب بها عبد الكريم، ولم يجـــد لها مثيلا إلا نساء

الملوك، حيث وصف الشاعر شكلها وصفا حسيًّا مفصَّلا، وشبَّهها في مشيتها بالكثيب المنقعر إذا مال، وشبهها والمسك والعنبر عليها بالعرجون في اصفراره[38].

فكانت مثل هذه الغزليّات التي اشتملت على مثل هذه الأوصاف والتشبيهات مما يفتن به، وينال إعجاب المتلقين من عامّة الناس وخاصتهم.

كما اشتملت قصائد الغزل وخاصة ما كان منها في" النسيب" على وصف أحوال الشاعر النفسية والعاطفية التي يتقاسمها مع هذه المرأة، ففي هذا الغرض غالبا ما يعبر الشاعر العذري بصدق عمّا اختلج في نفسه من أحاسيس وعواطف متقلبة بين الأمل في وصال المحبوبة تارة، واليأس تارة أخرى لصدود هذه المحبوبة أو ارتحال أهلها عن موطن الشاعر، ومما أنشده عبد الكريم لغيره:[من الطويل]

قليلـــــة لحم الناظرَيْن يزينُهـــــا شبـــاب ومخفـــوض من العـــيش باردُ
أرادت لتنتـــــاشَ الـــرُّواق فلم أقُمْ إليـــــه، ولكـــــن طَـــأْطَأَتْهُ الـــــوَلاَئِدُ
تناهى إلـــى لهـــو الحديثِ كأنهـــا أخـــو سَقْطَةٍ قَـــــدْ أسْلَمَتْـــــهُ العـــوائدُ

– يقول ابن رشيق– وأنواع النسيب كثيرة، وهذا الذي أنشدته أفضلها في مذاهب المتقدمين» [39].

ويرى النهشلي أن أبرز سمات المتغزل العربي أن يكون هو المتغزل المتماوت في طلب المرأة، وفي ذلك دليل شهامة العربي وغيرته على الحرم، وهو خلافٌ لما عُرِفَ عن عادة العجم الذين جعلوا المرأة هي الطالبة لا المطلوبة، وفي ذلك يقول:« العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة، وهنا دليل كرم النحيزة[40] في العرب وغيرتها على الحرم»[41]، هذا النص الذي نقله ابن رشيق بقوله:« قال بعضهم– أظنه عبد الكريم– [...]»[42] فقد نسبه إلى عبد الكريم على سبيل الظن ولم يكن متيقنا من قائله.

ورغم ذلك فإن هذا النص يعكس لنا وجهة نظر جريئة لخصت اتجاهين بارزين في فن الغزل هما: اتجاه العرب، واتجاه العجم؛ حيث اتفق كل منهما في موضوع الغزل، وهو عاطفة" الحب" التي تجمع بين الرجل والمرأة، لكنهما اختلفا في طريقة تجسيد هذه العاطفة، إذ اشتهر في غزليات العرب أن الشاعر هو الذي يكون طالبا والهًا بالمرأة، متذللا راجيًا وصلها، وتكون هي– المطلوبة– متمنعة متأبية، ومن ذلك قول« مسلم بن الوليد:[من الطويل]

أحبُّ التي صَــدَّت وقالت لتربهــا دَعيــه الثُّريَّــا منه أقرب من وَصْلــــي
أمَــاتَتْ وأحْيَتْ مُهْجَتِي فهيَ عِندها معلقــةٌ بيــن المــــواعيــد والمَطْـــــل»[43]

وتظهر المرأة في قوله متعالية متأبية زادت من محنته، والأمثلة من ذلك كثيرة في ديوان العرب؛ ويعود السبب في ذلك إلى عادات العرب في تعاملهم مع المرأة، خاصة بعد مجيء الإسلام الذي دعَّم مكانتها وأعلى من شأنها، فزادت معه غيرة العربي على الحرم، وصونه للأعراض، وكرم النحيزة عنده.

وعن" العجم" حكى النص أن العادة عندهم في غزلياتهم عكس ما عند العرب؛ حيث تكون المرأة الأعجمية هي الطالبة الراغبة في الوصل، بل والمخاطبة المصرَّحة بذلك، والعجم هنا: هم غير العرب من الأجناس الأخرى، والذين استعجم كلامهم فلم يُفهم: كالفرس والروم والهنود وغيرهم من الأمم التي وصلت العربَ قصصهم وأخبارهم عن عاداتهم وأعرافهم الاجتماعية، ومن بين هذه العادات طريقة تجسيد فن الغزل عندهم الذي اختلف تماما عمَّا عرفته في غزلياتها، ويعود السبب في ذلك إلى التركيبة النفسية والاجتماعية، وكذلك الدينية التي تتحكم في عادات وأخلاق كل أمَّة، لما عُرف عن أصحاب الملل والديانات غير الإسلامية من الاختلاف عنها في العادات والأخلاق. وتدل هذه الالتفاتة من النهشلي- إن صحّ ظن ابن رشيق- على« فطنة ودقة في الملاحظة وعلى إطلاع بالآداب الإنسانية الأخرى [...]، ويبدو أن عبد الكريم كان بصدد الحديث عن شهامة العربي، فأورد هذا التقابل في المواقف حتى يبرهن على كرم النحيزة عند العرب.»[44]

ومما سجله" إحسان عباس" على عبد الكريم في هذا النص قوله:« ولست أدري كيف غاب عن عبد الكريم غزل عمر بن أبي ربيعة وأضرابه، فإن ملمحه هذا على ما فيه من جدّة إنما يعتمد أساسًا أخلاقيًا»[45]، حيث يؤكد على أن النهشلي في توجهه هذا مازال يتبع الأساس الأخلاقي، ويطبقه في كلّ أحكامه النقدية المتعلقة بأغراض الشعر، لكننا لسنا ندري كيف غاب عن إحسان عباس، أن الشاعر" عمر ابن أبي ربيعة" وأضرابهُ هم ممن شذُّوا عن التوجُّه العربي في الغزل، فجعلوا المرأة هي المحبَّة الولهانة الراغبة في وصلهم، وهم المتمنعون الزاهدون في وصلها، وهذا الشاذّ من الشعر العربي يحفظ ولا يقاس عليه، خصوصا إذا علمنا عن ذلك" الغزو" الفكري والأخلاقي الذي لاحت بوادره مع

دخول الأعاجم في الإسلام وفي العروبة تحديدًا، ليمتزج العربي مع العجمي ويشاركه أخلاقه وأفكاره، وزاد الأمور تمكيناً شيوع الترف والازدهار المعيشي؛ فظهر الغزل الماجن الصريح مع مجموعة من هؤلاء الشعراء الماجنين، وظهر أيضا غزل عمر بن أبي ربيعة الذي تعرض إلى الرفض والنقد من قبل نقاد عصره؛ فقد قال له ابن أبي عتيق يوما لما سمع قوله:[من الرمل]

بينمـــــا يَنْعَتْنَنِـــي أبصـــرْنَنِـــــي   دون قيـــد المـــيل يَعْـــدُو بي الأغَـــرْ

قالـــت الكبـــرى : أتَعْـــرفنَ الفتى؟   قالـــت الوســـطـــى: نعـــــم، هذا عمرْ

قالت الصغرى: وقـــــد تيَّمْتُهـــا: قـــــد عرفنـــــاه، وهل يخفى القمر؟!

قال له أنت لم تنسب بهن وإنما نسبت بنفسك، وإنما كان ينبغي لك أن تقول: قالت لي فقلت لها فوضعت خدي فوطئت عليه» [46].

وعمر في شعره هذا خالف المعاني السامية التي يصوّرها الغزل العربي مثل: كرامة المرأة ودلالها، وعفّتها مع حيائها، حيث سلخ عنها كل هذه الصفات التي يحبُّها بل يشترطها العربي في المرأة، ثم إنه خالف الآداب السائدة في طريقة الغزل، فكان كما قال ابن أبي عتيق: ينسب بنفسه بدلا من أن ينسب بامرأة يحبها.

نصل إذن إلى أن شعر الغزل بما اشتمل عليه من التشبيهات والأوصاف وتضمنه للمعاني والآداب الرفيعة في هذا الباب داخل في صنف شعر الظرف عند عبد الكريم، وكذلك الحال بالنسبة لأغراض أخرى كالحماسة والوصف مما احتوى على ما يفتنّ ويُتظرّف به من الشعر العربي، ليأتي دور الصنف الأخير من تصنيف النهشلي للشعر ألا وهو: شعر التكسب.

ب – شعـــــر التكســــــب:

يقول فيه النهشلي:« وشعر يتكسب به، وذلك أن يحمل إلى كلّ سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه.» [47]

والذي يُظهِر اهتمام النهشلي بموضوع التكسب بالشعر هو أنه أفرد له بابا فيما تبقى لنا من كتابه الممتع، وهو باب" في الأنفة عن السؤال بالشعر" [48]، حيث بسط فيه القول حول هذه العادة المذمومة عند العرب، التي تنحرف بالشعر عن مقصده الأساس وهدفه السامي الذي يعبـــر به الشاعر عن صدق شعوره وأحاسيســـه بأسلوب فني جمالي

ولغوي بديع، فيجسد الجمال الذي يتذوقه المتلقي. ليكون هذا الشعر مجرد أداة أو حرفة يتكلفها الشاعر ليؤمن قوته، و لم تكن هذه العادة معروفة في بدايات الشعر يوم كان الشعر أفضل الفنون القولية لدى العرب، ويفضَّل حتى على فن الخطابة رغم أهميتها في حياة العرب؛ فـ« الشاعر عند العرب أفضل من الخطيب وكانت تُهنَّأُ بالشاعر إذا نبغ [...]»(49)؛ ولكن هذه النظرة للشعر سرعان ما تغيَّرت وانقلبت بدخول الشعر مجالات أخرى حطَّت من قيمته، مع مجموعة من الشعراء- الطارئين- الذين غيَّروا توجُّه الشعر من نيَّة الفنية والجمالية إلى نية الاستغلال والنفعية، يقول النهشلي:« [...] إلاّ أن المحدثين أخرجوه عن حده، وجعلوه مكسبًا حتى قالوا: الشعر أَدْنَى مروءة السَّرِيّ، وأَسْرَى مُرُوءَةَ الدَّنِيّ»(50)؛ حيث استغلّ هؤلاء الشعراء الشعر لما جعلوه مكسبًا للأموال، فدلّ على سخفهم« وسقوطهم وتلونهم في مواقفهم؛ لأنهم يخيفُون الناس بسلاطة ألسنتهم وبوقاحة أفكارهم، فيسارع أولئك وهؤلاء لاتقاء شرهم ولجم أفواههم بالهبات والهدايا الثمينة»(51)، وكم من دنيء من الناس سما وعلا شأنه لمَّا تناوله شاعر بالمدح، ونسب له من صفات المروءة ما لا يمتُّ لشخصيته بصلة في حقيقتها رغبة من هذا الشاعر في نيل أعطيات هذا الممدوح؛ وفي مقابل ذلك كم من شريف قومه وضعه شعر شاعر كان قد مُنع عطيّته.

ويعد غرض المدح: أبرز الأغراض الشعرية التي ارتبطت في مفهومها بعادة التكسب لدى الشعراء؛ فالمدح غرض شعري يتناول فيه الشاعر وصف« محاسن الممدوح ويعد مآثره»(52).

وقد شاع غرض المدح واستشرى في الشعر العربي، وبلغ مبلغًا متقدمًا في اعتماده من طرف الشعراء، ولئن كان عند من تقدم من الشعراء محتشما؛ فلم يكن الشاعر يقول الشعر مادحًا إلا« فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقّها إلا بالشكر إعظاما لها كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بني تيم رهط المعلّى:[من الوافر]

أقرَّ حشـــا امـــرئ القيس بن حجر بنـــو تيــــم مصـــابيحُ الظـــــلام»(53)؛ حيث كانت العرب« تأْنَفُ عن الطلب بالشعر»(54) ترفّعًا وحفظًا لماء وجهها. لكن طائفة من الشعراء ذهبت مذهبا جديدًا في المدح وعلى رأسهم النابغة الذبياني الذي اشتهر في صلته بالنعمان بن المنذر الغساني، فقال عنه ابن رشيق: إنه مدح الملوك« وتكسب مالا جسيمًا حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيـــه من عطاء الملوك»(55)؛ فحاد

النابغة بشعر المدح عن أصله وتبعه في هذا التوجه شعراء كثر اتصلوا بالملوك وأصحاب النفوذ واستمطروهم الأعطيات، وجاهروا بذلك في أشعارهم حتى اتخذ الناس موقفا خاصا من الشعر، فرأوه أداة لقلب الحقائق وتزييفها يوجهها الشاعر كيف يشاء وضدّ من يشاء، ليرفع من قيمة الدنيء ويحط من قيمة السري، فهذا الحجاج لما سأل« مساور بن هند: لم تقول الشعر؟ قال: أُسْقى به المَاء، وأَرْعَى به الكلأَ، وأقضي الحاجة. فإن كَفَيْتَني ذلك تركته. ومساور بن هند شريف، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لأبيه هند بن قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة على رياسة غطفان[...] كأن الحجاج كره لمساور – إذ كان شريفا– قول الشعر، لقولهم: الشعر أدنى مروءة الشريف، وأسرى مروءة الوضيع.»(56)

ولذلك كانت كرام الشعراء في أنفسها لا تقصد بشعرها أحدا تعففًا وحفظًا لماء وجهها من مذلة السؤال بالشعر، في مقابل شعراء المدح الآخرين الذين رأى النهشلي:

1/ أنهم <u>يحملون إلى كل سوق ما ينفق فيها</u>؛ فالشاعر المتكسب يواجه الملوك والأمراء من الممدوحين مخاطبا لهم بما يليق بمقامهم، سواء أكان ذلك على مستوى المعاني والتشبيهات المتميزة، أم كان على مستوى القوالب اللفظية والعبارات التي تتناسب مع مقامهم، وإن كان هذا الشاعر مخاطبا لممدوح آخر هو مثلا دون منزلة الملوك والأمراء، فمن المؤكد أن السلعة من الشعر التي يقدمها لهذا الممدوح ستختلف عما كان قدّمه للملوك أو الأمراء في ألفاظها ومعانيها وحتى في موقف إنشادها.

2/وهذا الشاعر <u>يخاطب كل إنسان من حيث هو</u>؛ فهو يتلون حسب مقام أو مكانة الممدوح، فإن كان هذا الممدوح ملكا متجبراً، ذكر هيبته وسلطانه وفخامة ملكه وخضوع الرعية لسطوته؛ ولئن كان ملكًا عادلا، ذكر عدله وسماحته، وكذلك الحال لو كان الممدوح فارسًا ذكر الشاعر قوّته وصولاته وجولاته وأهم معاركه وبطولاته؛ فهو يتحسس مواطن الضعف في نفس ممدوحه حتى يستفزّه إلى إكرامه بجزيل العطاء، ولذلك فهو:

3/ <u>يأتي إليه من جهة فهمه</u>؛ فيكلمه بما يحب وبما تقر به عينه، ولو كان ذلك بأوصاف مبالغة وبعيدة عن الحقيقة.

وبذلك اشتهر أناس كثر على لسان الشعر الذي وصفه محمد مرتاض بالإعلام القديم« الذي سرعان ما تتبادله الركبان، وتتناقلـــه القوافل السيارة عبر البيئات المختلفـــة

فيرتسم في الأذهان، ويحفر في الذاكرة»[57]، ومن خلال هذا الشعر يقدم الشاعر الناس بالصورة الحسنة، وإن ساءت أخبارهم من خلال المدح، وبالصورة السيئة وإن حسنت شمائلهم، وشرفت مكانتهم من خلال الهجاء، ولذلك عدّ المدح ضدّ الهجاء؛ فالأول يبدي المحاسن ويعدّدها، والثاني يبدي المساوئ ويعددها.

وفي ذلك قال عبد الكريم:« والعرب تمدح فترفع، وتهجو فتضع، فإذا مدحت الشيء بلطافتها وذلاقة ألسنتها اختير وبسط عذره، كما غطيت بالهجاء محاسنه، ألا تسمع لقول الأول:[من الطويل]

فعين الرضـــا عن كل عيب كليلـــة كـــما أن عين السخط تبدي المساويا»[58]

لكن النهشلي لا يتشدد في أمر المدح- كما فهمنا من كلامه عن شعر التكسب- فهو يرى أن من شعر المديح ما كان مستلطفا ومفيدًا في مقامه، وهو ما لمسه في شعر " أمية بن أبي الصلت" يقول:« ومن جميل السؤال، ولطيف التقاضي: قول أمية ابن أبي الصَّلت الثقفي، وكانت له حاجة عند عبد الله بن جدْعان:[من الوافر]

أأذْكُـــــرُ حاجتِـــي أم قـــد كَفَانِـــي حَيَـــــاؤكَ إن شِيمَتَــك الحيـــــــاءُ
وعِلْمُـــكَ بِالحقُــوق وأنـــت فَـــرْعٌ لك الحَسَـــبُ المهَـــذَّبُ والسَّنَـــــاءُ
إذا أثنـــى عليـــك المـــــرء يومـــا كفــــــاه مـــن تَعرُّضِــــهِ الثَّنَـــــاءُ

وهذا ألطف تقاض، وأشرف مدح»[59]، حيث يرى النهشلي أن المدح إذا قصده الشاعر لقضاء حاجة أو درء سوء فلا بأس به، بل قد يكون من ألطف وأشرف المدح الذي يبعُد عن التكسب واسترضاء الملوك والأمراء طمعًا في الأعطيات، وأورد النهشلي قول عمر رضي الله عنه في مثل هذا الشعر:« نِعْم ما تعلمته العرب الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته، فيستنزل بها اللئيم، ويستعطف بها الكريم»[60]، وفي ذلك« قالوا: أفضل اللفظ بديهة أمن، وردت في مقام خوف» [61]؛ وعبد الكريم بذلك لا يقحم غرض المدح كلية في شعر التكسب، بل إنه في نقده للشعر استحسن بعض الممادح، كقول حسان بن ثابت الذي مدح فيه قومه آل جفنة[62]، يقول النهشلي:

« ومن أحسن ما ينشد في دار مقامة القوم من الشعر الجامع لخصال المدح قول حسان بن ثابت الأنصاري في آل جفنة الغساني:[من الكامل]

لله در عصـــــابـــــة نـــادَمْتُهـــــا يومـًــــا بَجَلَــقِ فـــي الزَّمَـــان الأوّل

يُغْشَــوْنَ حَتَــى مــا تَهِــرُّ كِلاَبُهُمْ   لا يَسْــأَلــُون عن السَّــوَادِ المُقْبِــلِ»[63]

واسترسل النهشلي في شرح الأبيات حتى أبرز وجوه الممادح التي ساقها حسان لآل جفنة، معجبا بما انطوى عليه هذا الشعر من كريم المدح وجميله.

ثانيا– التصنيفــات الفنيــة للشعــر:

ولم يتوقف النهشلي عند التصنيف الأخلاقي للشعر بل تجاوز تصنيفه هذا إلى ذكر ما ورد من تصنيفات فنية أخرى في حق الشعر، يقول ابن رشيق في العمدة:« قال عبد الكريم: يجمع أصناف الشعر أربعة، المديح والهجاء، والحكمة، واللهو. ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون، فيكون من المديح؛ المراثي والافتخار، والشكر، ويكون من الهجاء؛ الذم، والعتاب، الاستبطاء، ويكون من الحكمة، الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللهو الغزل، والطرب وصفة الخمر، والخمور»[64]، هذا التصنيف الفني الذي جعل فيه النهشلي أربعة أصناف لو تأملناها لوجدناها تقوم على ثنائيتين هما:(المديح والهجاء) من جهة، و(الحكمة واللهو) من جهة أخرى، فالشعراء إذن: ما بين مادحٍ أو هاجٍ أو حكيمٍ أو لاهٍ، وهي تصنيفات تشبه إلى حد ما تصنيفه الأخلاقي الأول، إلا أنه يذكر فيها أهم الأغراض التي تتفرع عن هذه الأصناف الفنية الأصلية، فيذكر:

1– **المديح:** ومنه: الرثاء والفخر والشكر، وهي أغراض تشترك مع غرض المديح في أن الشاعر يقصد فيها شخصا بعينه فيذكر محاسنه، ويعدد مآثره، حيث يكون الممدوح في المديح من الأحياء، ويكون الممدوح في الرثاء من الأموات؛ وفيه يعدد الشاعر محاسن ومآثر الميت التي كانت له في حياته، ويكون الممدوح في الفخر هو الشاعر ذاته أو أهله وعشيرته؛ أي انتماؤه، ويشترط أن يكون الخطاب فيه بصيغة المتكلم، ويكون المخاطَب في موضوع الشكر صاحب فضل على الشاعر الذي لم يستطع الشاعر أداء حقه إلا بأبيات من الشعر يعبر له فيها عن اعترافه بجميله وإحسانه.

2– **الهجاء:** ومنه: الذم والعتاب والاستبطاء، فهذه الأغراض الغنائية مجتمعةً تصدر عن عاطفة واحدة هي: الغضب وعدم الارتياح.

3– **الحكمة:** ومنها: الأمثال والزهد والمواعظ، وهي أغراض تمثل جانب الاستقامة والالتزام بالشرائع والأخلاق والعرف الاجتماعي.

4– **اللهو:** ومنه: الغزل والطرد والخمريات، وغيرها من الأغراض التي يستمتع فيها

الشاعر ويلهي نفسه والمتلقين بذكر المغامرات واللذات، سواء أكان ذلك مع المرأة أو مع الخمرة، أو في مغامرات الصيد.

وقد اهتم النقاد العرب بتصنيف الشعر على هذا النحو الفني قبل عبد الكريم؛ فهــذا أبو تمام(ت 231هــ) الذي يعد أقدم هؤلاء النقاد المصنفين للشعر« رتب مختاراته المشهورة بالحماسة في عشرة أبواب هي: الحماسة، والمراثي، والأدب، والنسيب، والهجاء، والأضياف والمديح، والصفات، والسير والنعاس، والملح، ومذمة النساء» (65). وورد في تصنيف الناقد إسحاق بن وهب نص في تصنيف الشعر يقترب من نص النهشلي المذكور يقول فيه:« وللشعراء فنون كثيرة، تجمعها في الأصل أصناف أربعة هي: المديح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرع عن كل صنف من ذلك فنون، فيكون من المديح: المراثي والافتخار والشكر واللطف في المسألة، وغير ذلك مما أشبه وقارب معناه، ويكون من الهجاء: الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب، وما أشبه ذلك وجانسه، ويكون من الحكمة: الأمثال والتزهيد والمواعظ وما شاكل ذلك وكان من نوعه، ويكون من اللهو: الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون، وما أشبه ذلك وقاربه».(66)

ويبدو أن هذا النص في تصنيف الشعر كان من النصوص المهمة والمشهورة في نقد الشعر، فكان تأثر النهشلي به، سواء أكان ذلك نتيجة تأثره بكتاب الناقد إسحاق بن وهب" البرهان في وجوه البيان" الذي نقل النهشلي عنه نصوصا كثيرة(67)، أم كان تأثره في ذلك بقدامة بن جعفر.(68)

ومما سبق يتبيّن أن النهشلي شاطر في تصنيفاته الفنية للشعر آراء النقاد العرب، إلا أنه اختلف عنهم في طريقة طرحه لهذه الفنون الشعرية؛ فقد أكّد أحمد يزن أن النهشلي تناول هذه الأغراض من خلال تحليل بعض القطع الشعرية ليبين فيها خصائص ومعاني كل غرض من أغراض الشعر، ووسم خطته فيها بالأدبية، في مقابل الخطة التعليمية التي انتهجها كل من قدامة والعسكري، ليقسما ويحدّدا فنون الشعر، ويحصرا بذلك كل غرض أو قسم شعري في معان محددة لا مجال للخروج أو الحياد عنها، ففي غرض المديح مثلا « نجد أن قدامة والعسكري يريان أن الشاعر المصيب من يمدح بالفضائل النفسية، وهي العقل والشجاعة والعدل والعفة، وأنه إذا خرج عنها إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة اعتبر مخطئا، أما النهشلي فإنه[...] قدم لنا نماذج يدرك المرء من

خلالها أنه لا يمانع في المدح بالصفات النفسية والجسمية»[69]، ومن ذلك ما ذكره في باب:" ذكر الجمال وحسن الوجوه" قول الشاعر[70]:[من الكامل]

إنّ المَهَــالِبَــةَ الكِــرَامَ تَحَمَّلُــــوا   دَفْـــعَ المكــارِهِ عَــــنْ ذَوِي المَكْــرُوهِ
زَانــوا قَدِيمَهــُمُ بِحُسْــنِ حَدِيثِهِــمْ   وَكَرِيـــــمَ أَخْــلاَقٍ بِحُسْــــنِ وُجُــــــوه

هذا المنهج الذي انتهجه النهشلي في تصوره للأغراض الشعرية يعتبر إطلاقا لحرية الشاعر« التي تعتبر أحد شروط الإبداع الفني»[71] بحيث تفسح له مجالا أوسع للتعبير.

وقد أورد النهشلي أقوالا أخرى صنفت أقسام الشعر على أسس مختلفة كقولهم: « الشعر ثلاثة أصناف، فشعر يكتب ويروى، وشعر يسمع ولا يروى، وشعر ينبذ ويرمى»[72]؛ حيث قسم هذا النص الشعر إلى:

1- الشعر المحكم الجيد من حيث المبنى والمعنى، فهو يكتب ويُروى« لما فيه من موضوعات قيمة وصياغة جميلة ومعنى لطيف».[73]

2- ثم إلى شعر يسمع ولا يروى، لما فيه من جمال لفظي موسيقي يمتع الأذواق السمعية (الآذان)، ولا يصل إلى القلوب لوهن معانيه وسذاجتها.

3- وأخيرًا: الشعر الذي ينبذ ويرمى[74]، وهذا الشعر هو الذي قَبُحَ شكلاً ومضموناً تمجُّه الأسماع وتتبذه الأذواق.

وقال أبو سفيان لابن الزبعري: لو أسهبت في شعرك. قال: حسبك من الشعر غرَّة لائحة، وشية فاضحة.

وأنشدني في نعت الشعراء:[من الرجز]

« الشعـــراءُ فـــاعلمـــنَّ أربعـــــــةْ   فشـــاعرٌ يجـــــري ولا يجـــــرى معـــه
وشـــــاعر ينشِدُ وَسْــط المجمعــه   وشـــــاعـــــر لا يرتَـــــجى لمنفعـــــة
وشاعــــــر يقـــــال خمِّــر في دَعَــه»[75]

وكأن الزبعري يشير إلى أن الشعر في أساسه إنما هو" مديح" مثَّله قوله: غــرّة لائحة، أو هجاء في قوله" شية فاضحة"، ثم أنشد قول الشاعر في تصنيفه الشعراء:

1- فشاعر يجري ولا يجرى معه: في إشارة إلى الشعر الجيــد صياغة ومضمــونا، فهــذا الشعر لا يجاريه في الفائدة شعر، لما فيه من جمال فني صياغي ومضامين مهمة

مفيدة، كما هو الحال في أغراض الحكمة– مثلا– التي تمتع وتفيد في الوقت نفسه.

2– وشاعر ينشد وسط المجمعه: حيث إن من الشعر ما يكون موجهًا لمتلق بعينه، فهو يُنْشَدُ موافقًا للمقامات التي يرد فيها، كما هو الحال في شعـــر المديح أو الشكر أو الافتخار أو حتى الرثاء.

3– وشاعر لا يرتجى لمنفعة: فهذا الشعر مرفوض منبوذ عند العرب، ربما لما فيه من إساءة للآخرين، أو أنه لا منفعة ترتجى من ورائه مثل: غرض الهجاء الذي أنِفَت العرب منه وتوقَّت شر شعرائه.

4– وشاعر يقال خمّر في دَعَه: وذلك الشعر المعبر عن مظاهر اللهو والتفكه ووصف الملذّات الغزليَّة والخمريّة.

هكذا إذن كان عرض النهشلي لأهم تصنيفات الشعر التي انفرد فيها بتصنيفه الأخلاقي، لما جعل الشعر خيرًا كلَّه، أو شرًّا كله، أو بين هذا وذاك: أي أن يكون ظرفاً، أو تكسُّباً.

ولقد تميَّز النهشلي– كما يرى أحمد يزن–[76]على النقاد العرب، لما جعل للشعر مواضيع عامة تستوعب كل مضامين الشعر العربي، وذلك حين صنف كتابه" الممتع" وبوَّبَهُ انطلاقا من أهم موضوعات الشعر ومنها: كتاب ذكر اللباس والطيب، وباب ذكر الهيبة، وباب في الجهارة وخلافها، وباب في ذكر المهيرات والسراري وغيرها من الأبواب، وكان ذلك منه في وقت كان فيه السّعي حثيثا لإيجاد تصنيف جامع مانع لموضوعات الشعر المختلفة والمتلونة باختلاف هذه الحياة وتلونها وهي مادة الشعر ومصدره.

الهوامـــش:

(1)– هو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، الناقد والأديب الشاعر المغربي القيرواني، صاحب كتاب:" الممتع في علم الشعر وعمله" والذي لم يصلنا منه إلا اختصار بعنوان: " اختيار الممتع غي علم الشعر وعمله"، ولد ونشأ بالمحمدية من أرض الزاب أو المسيلة ثم انتقل إلى القيروان وهناك لمع نجمه في النقد والشعر بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، توفي 405 هـ.

(2)– ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1: 1422هـ، 2001م، 1/ 106.

(3)– إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، دار الشروق، عمان– الأردن، ط4: 2006 م، ص: 448.

(4)– سورة: الذاريات.

(5)– محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل، بيروت– لبنان، 1410هـ، 1990م، ص: 202.

(6)– محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره دراسة وتطبيق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م، ص:43.

(7)– ابن رشيق القيرواني: العمدة، 1/ 16.

(8)– عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4: 1981، 1/ 83.

(9)– قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ص: 14.

(10)– عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تح: محمود شاكر القطان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط2: 2006 م، 1/ 96، 97.

(11)– سورة: الشعراء.

(12)– محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تح: الشيخ محمد علي القطب، والشيخ هشام البخاري، المكتبة العصرية والدار النموذجية، صيدا– بيروت، 1426 هـ، 2005 م، ص: 20.

(13)– عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 2/ 427.

(14)– المصدر نفسه، 2/ 427.

(15)– المصدر نفسه، 2/ 427.

(16)– المصدر نفسه، 2/ 427، 428.

(17)– المصدر نفسه، 2/ 428.

(18)– المصدر نفسه، 1/ 345.

(19)- تكلم النهشلي عن أثر غرض الهجاء في الشعر العربي في أبواب كثيرة من كتابه أهمها: باب فيمن نوه به المدح وحطه الهجاء، 1/ 310، باب: في النهي عن تعرض الشعراء، 1/ 347، باب في الشعراء تستحسن انتصارها بألسنتها، 2/ 439.

(20)- المصدر نفسه، 2/ 541.

(21)- المصدر نفسه، 1/ 155، 156، 157.

(22)- يرى النهشلي أن الهجاء من الأغراض المؤثرة سلبًا على المجتمعات، لكن من النقاد والباحثين من رأوا غير ذلك؛ أي أن الهجاء بمثابة المرآة التي يرى فيها الفرد والمجتمع عيوبه فيتنبه إلى إصلاحها.- ينظر: قحطان رشيد التميمي: اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري: ص: 12، 13.

(23)- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، ط2، 1401 هـ، 1981 م، ص: 376.

(24)- ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1395 هـ، 1975 م ، ق1، 1/ 544.

(25)- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 376.

(26)- إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 511.

(27)- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ص: 377.

(28)- أحمد يزن: النقد الادبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف، الرباط، 1986 م، ص: 410.

(29)- المرجع نفسه، ص: 410.

(30)- جمال الدين بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت- لبنان، ط1، 1997 م، مادة(ظ ر ف)، 4/ 221، 222.

(31)- الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1: 1424 هـ، 2003 م، مادة(ظ ر ف)، 3/ 75.

(32)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 2/ 447.

(33)- طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط12، ص: 22.

(34)– محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص: 43.

(35)– المرجع نفسه، ص: 43.

(36)– أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، مطبعة الرسالة، عابدين– مصر، ط1: 1985 م، ص: 129.

(37)– ابن رشيق القيرواني: العمدة، 2/ 138.

(38)– والشاعر يعبر بهذا الشعر عن إعجابه بجمال حبيبته، وهو إحساس صادق، وليس على الشاعر من بأس أن يبرز الصفات الجسمية والجمال الجسمي في الشعر."– أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي، ص: 133.

(39)– ابن رشيق القيرواني: العمدة، 2/ 138.

(40)– النحيزة: الطبيعة، وقيل النفس، وقيل السيرة والطريقة. لسان العرب، مادة(ن ح ز)، 6/ 152.

(41)– المصدر نفسه، 2/ 144.

(42)– المصدر نفسه، 2/ 144.

(43)– المصدر نفسه، ص2/ 139.

(44)– بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م، ص: 74، 75.

(45)– إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص: 449، 450.

(46)– ابن رشيق القيرواني: العمدة، 2/ 144.

(47)– المصدر نفسه، 1/ 106.

(48)– عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 297.

(49)– المصدر نفسه، 1/ 297.

(50)– المصدر نفسه، 1/ 297.

(51)– محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص: 45.

(52)– الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي، لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، قضايا ونماذج ونصوص، عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط1: 1430– 2009، ص: 199.

(53)- ابن رشيق القيرواني: العمدة، 1/ 69.

(54)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 297.

(55)- ابن رشيق القيرواني: العمدة، 1/ 69.

(56)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 81، 82.

(57)- محمد مرتاض: النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص:45.

(58)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 382.

(59)- المصدر نفسه، 1/ 299، 300.

(60)- المصدر نفسه، 1/ 81.

(61)- المصدر نفسه، 1/ 237.

(62)- وقد أعجب بقصيدة حسان غير النهشلي: كعمر بن الحارث الأعرج الغساني، ووصفها قائلا: هذه البتارة التي بترت المدائح. وكأنها" سيف قاطع استأصل كل أثر قد تحدثه أية قصيدة مدح أخرى."- حسن البنداري: طاقات الشعر في التراث النقدي، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2: 2007، ص: 25.

(63)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 150.

(64)- ابن رشيق القيرواني: العمدة، 1/ 109.

(65)- محمد محمد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، دار النهضة العربية بيروت- لبنان، ط: 1389 هـ، 1970 م، ص: 5.

(66)- أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 112، نقلا عن إسحاق بن وهب: البرهان في وجوه البيان.

(67)- أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 111، 112.

(68)- قدامة بن جعفر: نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1416 هـ، 1995 م، ص: 81.

(69)- أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 98.

(70)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 180.

(71)- أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 99.

(72)- عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع، 1/ 92 .

(73)– بشير خلدون: الحركة النقدية، ص: 73.

(74)– قرأ بشير خلدون هذه العبارة" وشعر يلتذُّ ويروى"؛ وهذا الشعر هو الذي جمع بين الجمال الشكلي على مستوى الوزن والجرس الموسيقي لألفاظه الجزلة، وبين جمال المضمون أو المعاني، ولذلك فهو يلتذُّ سماعًا ويروى للفائدة التي احتوى عليها. – ينظر: بشير خلدون: الحركة النقدية، ص: 73.

(75)– عبد الكريم النهشلي: اختيار الممتع ، 1/ 92، 93 .

(76)– أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص: 98.